ر. د.م.د: ISSN 2437-0819-رقم الإيداع القانوني:2014-6068

النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي

. ضرورة معرفية أم موضة نقدية .

دراسة في نقد النقد

The Cultural Criticism by Abdullah Al-Ghadami

Cognitive Necessity or critical fashion

- Study in Criticism of Criticism –

ط.د: فريد مناصرية

جامعة يحي فارس – المدية

إشراف: د.سليم حيولة

تاريخ الإرسال: 2018/02/22 تاريخ القبول: 2018/04/02

الملخص:

تشهد الساحة النقدية الحديثة تحولا وتعددا في المناهج القرائية من أجل مقاربة الظاهرة النصية، حيث ساهم في هذا التعدد والتسارع المنهجي عدة عوامل: ثقافية واجتماعية وأدبية وسياسية... حتى أصبحنا نعيش في زمن الما بعديات أين ألغيت جميع الحواجز والفوارق.

وبما أن الخطاب الأدبي مشدود بحبال الثقافة و ما تخفيه من أنساق مضمرة، يرى عبد الله الغذامي « بضرورة موت النقد الأدبي وحتمية الاشتغال على النقد الثقافي كبديل منهجي ومعرفي من أجل الحفر عن الأنساق المضمرة والممررة داخل الخطابات المهيمنة والمهمشة. كما يبرر الغذامي انتقاله المنهجي من النقد الألسني إلى النقد الثقافي، بأن النقد الأدبي أصيب بالعمى الثقافي في اكتشاف الأنساق المضمرة المختبئة تحت عباءة الجمالي (الخطاب الشعري والبلاغي) حتى أصبحت هذه العيوب النسقية متحكمة في ذواتنا وسلوكياتنا [1] » .

إلى ذلك تحاول هذه الدراسة الإجابة عن مبررات إعلان موت النقد الأدبي وحتمية الإشتغال على النقد الثقافي؟ ثم هل استنفذنا جميع المناهج والاستراتيجيات

دار المنظومة للاستشارات

النقدية وكان لزاما علينا ايجاد بديل وحقل معرفي آخر من أجل مقاربة الظاهرة النصية؟ أم أننا في عصر الموضة والما بعديات؟.

الكلمات المفتاحية: عبد الله الغذامي - النقد الثقافي _ المصطلح_ المفهوم_ الخلفيات الفلسفية والمعرفية_ النسق المضمر

Abstrat:

The modern critical field knows a change and multiple reading methods in order to approach the textual phenomenon. Many cultural, social, literary and political factors contributed to this multiplicity and methodological acceleration; so that we live in the era of post of tendencies when all barriers and differences have been abolished.

As the literary discourse is linked to the culture and its implicit patterns, Abdullah Al-Ghadami believes in the death of the literary criticism and that the cultural criticism must be used as a methodological alternative in order to dig into the implicit patterns employed within both the dominant and marginalized discourses. Al-Ghadami also highlights his systematic shift from the linguistic criticism to the cultural criticism by proving that the literary criticism has been affected by the cultural blindness in discovering the implicit patterns under the aesthetic aspects (the poetic and rhetorical discourse) until these structural flaws become self-control and behavior.

The present study tends to justify the declaration of the death of literary criticism and the necessity of cultural criticism. Then, did we exhaust all the methods and critical strategies and we had to find alternative and another knowledge field in order to approach the textual phenomenon? Or are we living in the era of fashion and post of tendencies?.

Keywords: Abdullah Al-Ghadami - Cultural Criticism - Term - Concept - Philosophical and cognitive backgrounds – implicit pattern.

.

*** *** ***

تمهيـد:

شغل النص الأدبي وجمالياته حيزا كبيرا في الدراسات الأدبية والنقدية على مر العصور، من ذلك أن تعددت الفلسفات والمناهج والاتجاهات من أجل مقاربة النص الأدبي وسبر أغواره وفهم كنهه. و إذا كان اشتغال المناهج السياقية (المنهج الاجتماعي، المنهج التاريخي،

المنارة للاستشارات

المنهج النفسي) في فهم النص الأدبي مركزا بالأساس على العوامل الخارجية المصاحبة لكينونة النص، والتي نعني بها الظروف الاجتماعية والتاريخية والنفسية المرافقة لنشأة الظاهرة الإبداعية، كان لظهور المناهج النسقية مبرره، على اعتبار أن هاته المناهج السياقية أهملت النص والعلاقات الداخلية المكونة له، فجعلته وثيقة تاريخية و اجتماعية، فعمدت المناهج النسقية (النصانية) ممثلة في الشكلانية والبنيوية بالأساس، وكذلك السيميائية على تأويل وتفسير وفهم النص والأثر الأدبي اعتبارا من البنى والعلاقات التجميعية والتركيبية المشكلة له.

شكلت أدبية النص وجمالياته غاية، وهدفا أسمى سعى إليها النقد الأدبي قديما وحديثا، إنها الغاية التي أصابتنا بـ " **العمى الثقافي**"، إن العمى الثقافي الذي يعني به الغذامي هو عجز النقد الأدبي عن اكتشاف العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي والشعري، وعليه كان لزاما علينا تغيير آليات وأدوات النقد الأدبي، بل تغيير المجال أصلا، من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي.

يقدم عبد الله الغذامي رؤيته النظرية وآلياته التطبيقية لمشروعه "النقد الثقافي" ، كأول ناقد عربي يتبنى النقد الثقافي ويعلن من خلاله موت النقد الأدبي، جاء ذلك في مؤلفه **"النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية"**، وهو المؤلف الذي صدر سنة 2000 ، أي بعد خمس عشرة سنة تقريبا من صدور أول مؤلف لعبد الله الغذامي **"الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق"**، وهي المدة التي مارس فيها عبد الله الغذامي النقد الأدبي وصدر له عديد المؤلفات النقدية الألسنية. من هنا لنا أن نتساءل عن مبررات تحول الغذامي من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي؟. وإذا كان النقد الأدبي أصيب بـ العمى الثقافي بتعبير الغذامي، هل كل من كان يمارس النقد الأدبي وعلى رأسهم الغذامي مصاب بـ" العمى الثقافي"...؟ ذلك أن الغذامي مارس النقد الأدبي طيلة خمس عشرة سنة؟ ثم ماهي خلفيات النقد الثقافي الفلسفية وماهي آلياته الاجرائية؟.

أولا: النقد الثقافي بين إشكالية المصطلح والمفهوم

يقدم النقد الثقافي على أنه أحدث حقل نقدي ومعرفي في الساحة النقدية العالمية، كما أنه فعالية تضم عديد الفلسفات والآليات المعرفية (النقد الأدبي، التاريخ، علم الاجتماع، السياسة، الأنثروبولوجيا، الاقتصاد،...)، ولأن النقد الثقافي يتعالق مع أكثر من حقل معرفي كان من الصعوبة بمكان وضع تعريف محدد له، كما أنه مازال قيد البحث والدراسة حتى في البيئة الغربية التي نشأ فيها، وعليه سنحاول عرض جملة من التعريفات التي وردت في بعض مؤلفات النقاد العرب بدءا بالناقد السعودي **عبد الله الغذامي** ، ليس لأنه محل الدراسة، ولكن لأننا نرى بأنه أول ناقد عربي يتبنى مشروع النقد الثقافي ويعلن صراحة موت النقد الأدبي.

يعرض **الغذامي** مفهومه للنقد الثقافي نقلا عن **فنسنت ليتش** بقوله: « يطرح فنسنت ليتش مصطلح (النقد الثقافي) مسميا مشروعه النقدي بهذا الاسم تحديدا ويجعله رديفا لمصطلحي مابعد الحداثة ومابعد البنيوية، حيث نشأ الاهتمام بالخطاب بما إنه خطاب، وهذا ليس تغييرا في مادة البحث فحسب، ولكنه أيضا تغير في منهج التحليل، يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية، من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي[2] » .

ويعرفه الغذامي أيضا ويشبهه بـ (علم العلل) « هو - إذن – نوع من (علم العلل) كما عند أهل مصطلح الحديث، وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب ويكشف عن سقطات في المتن أو في السند، مما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة وصارمة. ولاشك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجا قادرا على تشريح النصوص واستخراج الأنساق المضمرة ورصد حركتها [3] ».

كما يحصر عبد الله الغذامي وظيفة النقد الثقافي في نقد المستهلك الثقافي فيقول:« تأتي وظيفة النقد الثقافي من كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي (وليست في نقد الثقافة هكذا بإطلاق، أو مجرد دراستها ورصد تجلياتها وظواهرها)، وحينما نقول ذلك فإننا نعني أن

المنارة للاستشارات

لحظة هذا الفعل هي في عملية الاستهلاك، أي الاستقبال الجماهيري والقبول القرائي لخطاب ما[4] » .

أما **ميجان الرويلي وسعد البازعي** صاحبا مؤلف "دليل الناقد الأدبي" فيعرفان النقد الثقافي بقولهما:« في دلالته العامة يمكن القول إن النقد الثقافي، كما يوحي اسمه، نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها. وبهذا المعنى يمكن القول إن النقد الثقافي نقد عرفته ثقافات كثيرة، ومنها الثقافة العربية قديما وحديثا. غير أن تطور هذا الميدان من النشاط ونشاط البحث في التعرف عليه هو ما تكاد تحتكره الثقافة الغربية، التي تشكل حاليا المرجعية الرئيسية للتعرف على سماته ومراحل تطوره مثلما أنها عامل تأثير أساسي في تطور مثل هذا اللون من النشاط البحثي في غيرها من الثقافات[5] » .

ويعرفه **صلاح قنصوة** في مؤلفه - تمارين في النقد الثقافي – بقوله:« النقد الثقافي مصطلح حديث جدا، ولم يقدر له الذيوع أخيرا إلا بمقدم المتغيرات والعوامل التي أدت إلى العولمة وما بعد الحداثة، فلا يعد نتيجة لهما بقدر ما هو شريك ينبع في نفس المصادر، وينتسب إلى ذات المناخ. وهو ليس منهجا بين مناهج أخرى، أو مذهبا أو نظرية، كما أنه ليس فرعا أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها، بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على درس كل ماتنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا، تولد معنى أو دلالة[6] ».

كما يعرفه **الأستاذ عبد القادر الرباعي** بأنه:« التوسع في مجالات الاهتمام والتحليل للأنساق، إذ لم يعد الأدب بالمفهوم التقليدي هو السائد غالبا في مجال الدراسة التحليلية والنقدية وإنما غدا في بعض الدراسات المعاصرة جزءا من كل أكبر وأوسع وأشمل، حتى سمي هذا الكل: الدراسات الثقافية ...[7] » .

ومن جهة أخرى نجد **ماهر شفيق فريد** في مؤلفه "ما وراء النص اتجاهات النقد الأدبي الغربي في يومنا هذا"، يقدم مفهومه للنقد الثقافي ويقرنه بـ "التاريخانية الجديدة" و "الدراسات الثقافية" إذ يقول:« الدراسات الثقافية مبحث بيني (أي يتحرك بين أنساق

معرفية مختلفة) ويضرب بسهم في نظرية الأدب، ونقد مابعد الكولونيالية، ودراسات الجنوسة، ونقد أنصار النزعة النسوية، ودراسة العلامات (السيميوطيقا)، فضلا عن التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان، والنظرية الاجتماعية الماركسية. وقد عكف نقاد الثقافة منذ أواخر خمسينيات القرن العشرين على تحليل المؤسسات القائمة سعيا إلى تغييرها، ونقد الممارسات الاجتماعية، وإعادة تعريف مصطلح الثقافة[8] » .

هذا ويرجع **محمود خليف الحياني** ظهور النقد الثقافي إلى مركز **برمنجهام سنة 1964**، وهو التاريخ والمكان الذي يتفق فيه كثير من النقاد والمفكرين على التشكيل والانطلاق الفعلي للنقد الثقافي« تتجلى البداية الثقافية لمقاربة النص الأدبي بوصفه علامة ثقافية بمجموعة بيرمنجهام 1964 ومشروعها المتجسد في الدراسات الثقافية التي فتحت مقاربة النص على مقاربة الآثار الثقافية الأخر كالسينما والإعلام والغناء... الخ، فمفهوم الدراسات الثقافية كسرت مركزية النص ولم تعد تنظر إليه بوصفه نصا أو دلالة، إنما صارت تقارب النص من حيث ما يتحقق فيه وما يكشف عنه من أنظمة ثقافية [9] » .

من التعريفات السابقات يظهر الاختلاف و التمايز الواضح بين النقاد العرب في تحديد مفهومهم للنقد الثقافي، فمنهم من يقدم النقد الثقافي على أنه الدراسات الثقافية، ومنهم من يربطه بالتاريخانية الجديدة، ومنهم من يجعله مرادفا للتاريخانية الجديدة و الدراسات الثقافية على حد سواء، ومنهم من يلصقه بنقد الثقافة،بالمقابل لن أقف طويلا عند اشكالية المصطلح لسببين رئيسيين:

أولهما: إن اشكالية المصطلح أصبحت سمة موسوم بها كتابات النقاد العرب ليس في مجال النقد الثقافي فحسب، بل تعداه إلى كافة الأجناس و المناهج و الحقول المعرفية الأخرى (الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية، السياسية)، ولعل هذا الاختلاف راجع بالأساس إلى عملية **"المثاقفة"** والتي نعني بها حمولات المصطلح الفلسفية والمعرفية والفكرية في البيئة الغربية التي نشأ فيها، والسبب الثاني متعلقب **"الترجمة"** وهذا راجع إلى تلقي المترجمين والنقاد العرب لهاته الفلسفات لأكثر من لغة (انجليزية، فرنسية، ألمانية،

المنارة للاستشارات

روسية...) وهو ما زاد الوضع تعقيدا، خاصة في ظل غياب هيئة أو مركز عربي موحد متخصص في الترجمة.

يقول **حامد صادق قنيبي**« إذا ما تذكر المرء أن أغلب المصطلحات النقدية العربية الحديثة مستوحاة من مواريث أدبية ونقدية وثقافية مختلفة، ومن لغات أجنبية متعددة (كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والروسية، والاسبانية، والايطالية، واليونانية، واللاتينية وغيرها) فإن مجال الاختلاف فيها واسع، وهو أمر يتفهمه المرء، ولكنه، من جهة أخرى، لا يمكن أن يُرى فيه عاملا مساعدا على تطوير الحركة النقدية العربية المعاصرة. إن هذا الاختلاف يقف حجر عثرة في طريق هذا التطور، لأنه يزعزع أساسا هاما من أسس الحوار البناء[10]» .

ثانيهما: أن النقد الثقافي حديث عهد في ميدان الدراسة ومجال البحث حتى في البيئة الغربية التي نشأ وظهر فيها، فالنقد الثقافي من أهم افرازات ما بعد الحداثة، وبهذا ما زال الاشتغال عليه قائما من أجل بلورته وتحديد معالمه ومجالات تطبيقه، كما أن الفلسفات والمناهج المشكلة للنقد الثقافي ما زالت غير محددة المعالم بعد.

من التعريفات والاصطلاحات السابقة يمكننا أن نجمل ما ورد من مفاهيم وآراء عن النقد الثقافي بأنه **فعالية تضم عديد الاتجاهات والآليات، تجمع بين علوم وحقول معرفية مختلفة (النقد الأدبي، التاريخ، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، السياسة، الاقتصاد، علم النفس..) تستهدف الكشف عن الأنساق المضمرة الممررة في الخطابات المهيمنة والمهمشة، بغية الكشف عن تمثلات وألاعيب الثقافة.**

ثانيا: الخلفيات الفلسفية والمعرفية للنقد الثقافي ومبررات التحول

1- الخلفيات الفلسفية والمعرفية للنقد الثقافي:

يقودنا الحديث عن النقد الثقافي وخلفياته الفلسفية والمعرفية إلى الاحاطة بالسياق العام الذي أدى إلى ظهوره، فالنقد الثقافي ظهر مع مركز برمنغهام للدراسات الثقافية عند ريتشارد هوغارت في بيئة غربية متأثرا بعديد العوامل التي ساعدت في تكوين قاعدته، ولعل أبرز هاته العوامل هما : العاملين الاجتماعي والسياسي. أين ظهرت « ثقافة الهامش وثقافة

التنوع مما ينسب إلى ما بعد الحداثة [11] ». إنها الثقافة التي تلغي كل الحدود والفواصل بين الذات والموضوع وبين الأنا والآخر وبين الدال ومدلوله.

إن البحث في مشروع عبد الله الغذامي "النقد الثقافي" يحيلنا إلى أهم روافد النقد الثقافي _والتي نلخصها في الآتي:

أ - التفكيك:

تأتي التفكيكية (التشريحية بتعبير الغذامي) بقيادة جاك دريدا وميشال فوكو كآلية واستراتيجية لخلخلة وزعزعة المفاهيم والمركزيات والثنائيات الضدية التي لازمت الفكر الغربي لردح من الزمن (الأنا/الآخر، الذات/الموضوع، الدال/المدلول، الخير/الشر).« والتشريحية تعتمد على بلاغيات النص لتَنفُذ منها إلى منطقياته فتنقضها، وبذا يقضي القارئ على (التمركز المنطقي) في النص كما هو هدف دريدا [12]» .

تقوم تفكيكية دريدا على نفي فكرة المركزية والحقيقة المطلقة، فالنص في الفكر الدريدي مبنى على جملة من التناقضات والاختلافات، إذ الدال لا يحيل إلى مدلوله، وبمعنى آخر إن الدوال ترقص وتلعب فلا مركز يجمعها، وبهذا يصبح المعنى غائبا أو مؤجلا « إن استراتيجية التفكيك تنطلق من موقف فلسفي مبدئي قائم على الشك. وقد ترجم التفكيكيون هذا الشك الفلسفي نقدا إلى رفض التقاليد، رفض القراءات المعتمدة، رفض النظام والسلطة من ناحية المبدأ [13]» .

استثمر عبد الله الغذامي في مشروعه النقد الثقافي من مقولات جاك دريدا القائمة على الشك والهدم وخلخلة القيم والثوابت المسلم بها، وهو ما كان للغذامي أين قام بدوره بخلخلة واحد من أهم دواوين العرب ومسلماتهم اللغوية والثقافية وأعني بها أشعار المتنبي وأبو تمام وغيرهم، كما استفاد من مقولات ميشال فوكو القائمة على « تحويل ميدان الاشتغال من النص إلى الخطاب، حيث قام فوكو بالإفصاح عن مضمرات الخطاب الغربي وعلاقته بالسلطة والقوة والهيمنة، أين قام بكشف وتعرية الخطاب المؤسساتي الغربي [14]». (الخطاب السياسي، الخطاب التعليمي، الخطاب الديني...) وبيان زيفه وكذبه، عبر عديد الحفريات التي اشتغل عليها ميشال فوكو. نلمس هذا في مؤلف عبد الله الغذامي

المنارة للاستشارات

"النقد الثقافي"، واشتغاله على الخطاب السياسي والسطلة والهيمنة ممثلا في الراحل "صدام حسين"، تحت عنوان سماه الغذامي "صناعة الطاغية".

ب- مدرسة فرانكفورت:

شكلت الفلسفة الاجتماعية لدى فلاسفة مدرسة فرانكفورت (ماكس هوركهيمرMax Horkheimer، ثيودورو أدورنو Théodor Wiesengrund- Adorno،هربرت ماركيوزHerbert Marcuse، والتر بنيامين Walter Benjamin، يورغن هابرماز Jürgen Habermes، اكسل هونيث...) اطارا **"نظريا وتطبيقيا"** هامين للمشتغلين في النقد الثقافي، فعلى امتداد الأجيال الثلاثة المشكلة لمدرسة فرانكفورت، سعى رواد هذه المدرسة إلى تفكيك الخطاب الغربي وبيان زيفه وتضليله للرأي العام، إذ ترفض مدرسة فرانكفورت النقدية « النظر إلى الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء، ومن ثم ترفض طابع الحياد الذي تتسم به الوضعية، وتحاول في المقابل أن تطرح فكرا لا يفصل بين النظرية والممارسة. وقد فهم هوركهايمر، ومعه فلاسفة فرانكفورت، الماركسية على أنها العلم النقدي للمجتمع، وأن مهمة الفلسفة بالتالي متابعة العملية النقدية والتحري عن أشكال الاغتراب الجديدة. وقد أخذت مساهمته الخاصة شكل تحليل نقدي للعقل. فلئن يكن العقل قد صاغ في الماضي مُثل العدالة والحرية والديمقراطية، فإن هذه المُثل حل بها الفساد في هيمنة البرجوازية التي أدت إلى تحليل حقيقي للعقل. ومن هنا بدت الحاجة إلى نظرية نقدية جدلية تستطيع أن تتعقل اغتراب العقل بالذات[15] » .

ج - النقد النسوي:

ساعدت التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الغرب على ظهور عدة اتجاهات وتيارات، من ذلك أن شكلت أفكار الاتجاه النسوي فرعا هاما من فروع النقد الثقافي، من خلال العمل على اعطاء أهمية للدور الذي تحتله المرأة في جوانب الحياة المختلفة، (فكرية، أدبية، سياسية...).

تبنى أنصار الاتجاه النسوي خطة واضحة المعالم، من أجل تفكيك وتقويض الخطاب الذكوري وجعله مهمشا، ليحل محله المهمش (الخطاب الأنثوي). فالثقافة في

الفكر النسوي "ذكورية" منحازة للأنا (الرجل) على حساب الآخر (المرأة)، وهو ما يحتم تعريتها، والكشف عن أنساقها المضمرة المشكلة لها، خاصة في جانبه اللغوي.

إن تشظي العلاقة بين الدال ومدلوله وبالتالي تأجيل المعنى وغيابه، أهم المرتكزات التي تستند عليها ناقدات الاتجاه النسوي، من أجل بيان زيف اللغة بإعطائها صفة الأصل للأنا (الرجل) على حساب الآخر (المرأة). نجد هذا الطرح في الخطاب النقدي عند عبد الله الغذامي ، إذ يقر بالانحياز الواضح للثقافة فيقول:« برزت لنا الثقافة بوجهها المذكر، حتى لكأن الثقافة رجل، فحسب[16] ». ساعدت أفكار الاتجاه النسوي الغذامي، في تشكيل رؤيته ومشروعه الخاص عن صورة المرأة في الثقافة العربية والاسلامية. نجد ذلك في مؤلفات الغذامي (المرأة واللغة – ثقافة الوهم- ..).

كما يؤكد الأستاذ حفناوي بعلي على مبررات ظهور النقد النسوي واشتغاله بقوله:« ظهر المذهب النسوي في أحضان الحداثة، وشكلت قيم الحداثة رافعته، لكن المذهب تأثر أيضا بتيار ما بعد الحداثة، فانقض على مفهوم مركزية العقل والتعريف الواحد للحقيقة، ورفض الثنائيات، وأصبحت أفكار دريدا وفوكو أساسا في النسوية المعاصرة. وجاء شيوع النظرية التفكيكية لـ << جاك دريدا >>، ليقدم الحجة القوية لأقطاب النقد النسوي. فالنقد التفكيكي شكك بمبدأ الإرث النظري للنقد الأدبي، ويؤكد أن المعنى في كل خطاب أدبي، هو نتيجة العلاقة الخلافية بين الحضور والغياب، أو بين المعنى المتحقق والمعنى المرجأ [17] » .

هذا وشكلت الدراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية عاملا مهما في ظهور وبلورة النقد الثقافي وتحديد معالمه واتجاهاته، بالمقابل لا يمكننا الحديث عن النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي وربطه بالسياق الكولونيالي أو ما بعد الكولونيالي، وهنا نقطة فارقة وجب التذكير بها. فالنقد الثقافي عند عبد الله الغذامي يدخل ضمن اطار الثقافتين العربية والاسلامية، وبمرجعيات خالية من كافة أشكال الاستدمار. بالمقابل نجد النزعة الكولونيالية حاضرة في كتابات ودراسات النقاد الثقافيين الآخرين، وأخص بالذكر هنا المفكر **ادوارد سعيد** ومنجزاته خاصة مؤلفه **"الاستشراق"**. فالنقد الثقافي عند ادوارد

المنارة للاستشارات

سعيد مختلف تماما عن النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، ذلك أن النقد الثقافي عند ادوارد سعيد مشروط بسياق كولونيالي (الهيمنة والامبريالية الأمريكية، الكيان الصهيوني، الاستشراق ...). حيث قام ادوارد سعيد « بكشف البنيات الفكرية للتراث الغربي الإبداعي والفكري والسياسي والاجتماعي محاولا البحث عن كيفية تمثيل ذلك التراث وتصويره للشرق، كمنطقة جغرافية تم فيها الفصل بين كيانين هما الشرق والغرب[18] ».

كذلك ما جادت به قريحة فيلسوف الحضارة **مالك بن نبي** من مشكلات الحضارة، وعلاقة الشرق بالغرب، وعلاقة العالم الاسلامي بالعالم الغربي وهي نقاط وجب التنبيه إليها، فهي دراسات تدخل ضمن الدراسات الكولنيالية وما بعد الكولونيالية ، وهي جزء مهم وفرع من فروع النقد الثقافي.

2- مبررات التحول من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي:

شكلت العوامل السابقة المشكلة لظهور النقد الثقافي مبررا كافيا للتحول من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي، فإذا كان النقد الأدبي يبحث في جمالية النص الأدبي وأدبيته، وهو المسار الذي انتهجه كثير من النقاد، فإن النقد الثقافي ينقل مجال الدراسة من النص إلى الخطاب، كما ينقل مجال البحث من جمالية النص وأدبيته إلى أنظمة الخطاب والأنساق المضمرة الممرة فيه. إنه تغير في مجال وأدوات وميدان الدراسة.

يبرر الغذامي سبب تحوله من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي بقوله:« لقد أدى النقد الأدبي دورا مهما في الوقوف على (جماليات) النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي وتقبل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي، مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه، أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، وظلت العيوب النسقية تتنامى متوسلة بالجمالي، الشعري والبلاغي، حتى صارت نموذجا سلوكيا يتحكم فينا ذهنيا وعمليا، وحتى صارت نماذجنا الراقية – بلاغيا- هي مصادر الخلل النسقي[19] ».

هذا ويرى عبد الله الغذامي أن النقد الأدبي وصل سن اليأس، و لم يعد بمقدوره مسايرة ركب التطور والتقدم الهائل الذي نشهده على كافة الأصعدة، فالعلوم والمعارف

تتصنم مثلما يتصنم الأشخاص يقول الغذامي « تتصنم العلوم مثلما يتصنم الأشخاص حتى لتبلغ حد القداسة، وأنا أرى أن النقد الأدبي كما نعهده، وبمدارسه القديمة والحديثة قد بلغ حد النضج، أو سن اليأس حتى لم يعد بقادر على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الآن عالميا، وعربيا [20] ».

كما يرى عبد الله الغذامي أن الشخصية العربية و خطابها (جماليا كان أو عقلانيا) مصاب بالخلل النسقي، وأن العيوب النسقية أصبحت متحكمة فينا وفي ذواتنا، ويضرب بذلك مثلا عن أشعار المتنبي وأبو تمام، وأدونيس ونزار قباني ... وغيرهم كثير. وبما أن النقد الأدبي غير مؤهل لكشف هذا الخلل... كان اعلان موت النقد الأدبي ضرورة تمليها الثقافة وأنظمة الخطاب، يقول الغذامي « بما أن النقد الأدبي غير مؤهل لكشف هذا الخلل الثقافي فقد كانت دعوتي بإعلان موت النقد الأدبي، وإحلال النقد الثقافي مكانه[21] » .

يجد المتلقي نفسه تائها أمام جملة من التعارضات والأسئلة، وهو يطالع ويبحث في مشروع ومشروعية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي:

- إذ يبدأ التساؤل بإشكالية تلقي النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، فإذا كان ظهور النقد الثقافي في التربة الغربية له ما يبرره من عوامل: سياسية، واجتماعية وثقافية واقتصادية.... هل نجد له مبرر في الثقافة والتربة العربية؟. فالخطاب النقدي العربي ما زال تائها بين المناهج والاتجاهات النقدية الألسنية، ولم تحدد بعد رؤية واضحة عن هاته الاتجاهات والاستراتيجيات وتطبيقاتها في المدونات العربية. فكيف لنا أن نعلن موت النقد الأدبي ومناهجه وحتمية الاشتغال على النقد الثقافي ونحن أصلا مازلنا لم نصل إلى المقاربة الحقيقية التي نادت بها هاته الاتجاهات؟. هل أصبح الانتقال من منهج لآخر، ومن استراتيجية لأخرى موضة نقدية أكثر منه محاولة للإحاطة بالخطاب الأدبي وتأويله وتفسيره وفهمه؟.
- ثم إذا سلمنا بمبررات تلقي النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي، هل كان لزاما على الغذامي إعلان موت النقد الأدبي؟. ثم كيف يعلن الغذامي موت النقدي الأدبي؟ ومناهج التحليل الأدبي النقدي هي من أهم آليات النقد الثقافي كما جاء عند مؤسس

المنارة للاستشارات

النقد الثقافي فنسنت ليتش V.Leitch ، يقول الغذامي نقلا عن ليتش « يطرح فنسنت ليتش مصطلح (النقد الثقافي) مسميا مشروعه النقدي بهذا الاسم تحديدا ويجعله رديفا لمصطلحي ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، حيث نشأ الاهتمام بالخطاب بما إنه خطاب، وهذا ليس تغييرا في مادة البحث فحسب، ولكنه أيضا تغيير في منهج التحليل، يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية، من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي النقدي[22] » .

- إذا كان النقد الأدبي أصيب بالعمى الثقافي في اكتشاف العيوب النسقية والأنساق المضمرة كما يقر بذلك الغذامي، ألم يصاب النقد الثقافي هو الآخر بالعمى النقدي وهو يبحث عن العيوب النسقية والأنساق المضمرة دون البحث في جماليات الخطاب وأدبيته؟. هل مهمة الناقد البحث عن قبحية الخطاب دون جماليته؟.

ثالثا: النسق الثقافي عند عبد الله الغذامي

يشكل النسق الثقافي جوهر مشروع النقد الثقافي عند الغذامي، فعلى الرغم من تعدد المفاهيم بخصوص النسق المضمر، إلا أن الغذامي يحصره ويربطه بـ "الوظيفة"، فالنسق الثقافي هو نتاج الثقافة وحيلها « يتحدد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد، أو في ماهو في حكم النص الواحد. ويشترط في النص أن يكون جماليا، وأن يكون جماهيريا[23] » .

ويعرفه أيضا بقوله:« يأتي مفهوم النسق المضمر في نظرية النقد الثقافي بوصفه مفهوما مركزيا، والمقصود هنا أن الثقافة تملك أنساقها الخاصة التي هي أنساق مهيمنة، وتتوسل لهذه الهيمنة عبر التخفي وراء أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها هو دعوانا قناع الجمالية، أي إن الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخرا غير الجمالية، وليست الجمالية إلا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي

هناك شيء نسقي مضمر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع[24] » .

يقدم الغذامي عدة تطبيقات عن تمظهرات النسق الثقافي في المدونة الثقافية العربية، ولعل أهم ما نقف عنده هو نسق الفحولة. يشكل نسق الفحولة محورا رئيسيا في مشروع الغذامي، فالشعر الذي هو ديوان العرب وعلمهم، انتقل من كونه صوت القبيلة والقومية إلى صوت الفرد والشخصنة، إنه تحول ثقافي خطير في الخطاب الثقافي العربي وفي علمهم الوحيد الذي لا علم لهم سواه، فالنسق الفحولي هو من « أخطر المخترعات الشعرية/الثقافية، وهو مصطلح ارتبط بالطبقة (طبقات فحول الشعراء) وارتبط بالتفرد والتعالي (الشعراء أمراء الكلام) مثلما ارتبط بتوظيف اللغة توظيفا منافقا (يصورون الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق)[25] ».

يعرض الغذامي في تطبيقاته للنقد الثقافي، والنسق الثقافي بالأخص عدة تطبيقات عن تمظهرات نسق الفحولة في المدونة العربية خاصة القديمة منها، ذلك أن نسق الفحولة تسرب إلى الشخصية العربية في مرحلة ما من العصر الجاهلي وظل ملازما لها إلى يومنا هذا، ويضرب لنا الغذامي عدة أمثلة عن نسق الفحولة بدءا بكتاب طبقات فحول الشعراء ودواوين المتنبي و أبو تمام وجرير... إلى الثقافة العربية المعاصرة ممثلة في كتابات أدونيس ونزار قباني وغيرهم. يقدم لنا الغذامي بيتا شعريا لجرير تضمن نسقا ثقافيا فحوليا فيقول:«

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله

حينما يقول ذلك فإنه يستند إلى رصيد ثقافي متجذر تقوم فيها الأنا مقاما أساسيا وجوهريا ويعتمد الخطاب على هذه الأنا اعتمادا مصيريا إلى درجة يصبح معها هذا القول هو الجملة الثقافية ليس للشاعر فحسب وإنما للثقافة ككل، والأنا هنا لا تتكلم عن جرير وحده ولكنها الأنا النسقية / الثقافية المغروسة في ذهن جرير وبدوره يزيد من بثها وتعميمها، ولذا نلاحظ احتفال المدونين والكتاب بهذه الأنا لأنها تمثل نسقا مشتركا وليس الأنا الجريرية فحسب"[26]

المنارة للاستشارات

يرى الغذامي أن "الأنا" هي نسق ثقافي متضمنة في جرير، كما يُحَمله جريرة من استعملها بعده، والواقع أن بيت جرير في موضع مدح وفخر وله أن يستعمل الأنا دون أن نحمله جريرة من تبعه. كما أن الوضع سيكون نفسه حتى لو استبدل "الأنا" بـ "الآخر"، وهو ما فعله المتنبي بمدح الأمراء ولكنه لم يسلم أيضا من وصفه بالمتنبي "الشحاذ العظيم"، فالمسألة ليست مرتبطة بـ "الأنا" و"الآخر" بقدر ما هي مرتبطة بالخطاب الجمالي ومقتضياته في الشعر العربي القديم.

يأتي نسق الاستفحال أيضا في كتابات نزار قباني، والذي يفترض أنه من رواد الحداثة في البيئة العربية بتعبير الغذامي ، « وبما أن نزار فحل يرث أسلافه من الفحول فإنه سيضع نفسه في الموضع المتعالي، وموضع الغلو الفاحش أليس يقول إن الشاعر هو الإنسان الإله، وأنه يحمل بين رئتيه قلب الله، وأن على الناقد أن يقف موقف المتعبد أمام مبدعات الفحل الأسطوري ...؟!، بما إنه يحمل هذا الموروث الفحولي بكامل نسقيته فإنه حتما سيتمثل هذه الفحولية شعريا، وهاهو ينصب نفسه مانحا عبيده القراء والقارئات لجنات هي جناته ولنيران هي نيرانه، فيقول:

إني خيرتك فاختاري
ما بين الموت على صدري
أو فوق دفاتر أشعاري
لا توجد منطقة وسطى
مابين الجنة وناري[27] » .

يرى الغذامي أن أبيات نزار قباني لا تشكل مبالغات شعرية، بقدر ما هي أوهام تؤسس لجبروت الذات وسموها متوسلة بمقولة << أعذب الشعر أكذبه >>.إن الذات المتعالية بلغت بنزار قباني أن جعلته يعتبر نفسه « مؤسس أول جمهورية شعرية، أكثر مواطنيها من النساء، وهي الدعوى التي يراها الغذامي غير صحيحة لسببين، أولهما أن "الأنا" منتشية ومتعالية في خطاب نزار قباني، وثانيهما أن نزار قباني انتهك عذرية اللغة وفضها، لأن

الكلمات في اعتقاده عذارى وتظل كذلك إلى أن يضاجعها كي تتعهر، وعبر معاشرة نزار قباني لها تتحول اللغة إلى أميرة أو إلى خادمة[28]» .

خـاتمة

يمكننا أن نجمل ما تقدم من آراء وأفكار عن مشروع النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي في ما يأتي:

- بإمكاننا فض الإشكال المصطلحي والمفهومي للنقد الثقافي باعتباره فعالية تضم عديد

الاتجاهات والآليات، تجمع بين علوم وحقول معرفية مختلفة (النقد الأدبي، التاريخ، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، السياسة، الاقتصاد، علم النفس..) تستهدف الكشف عن الأنساق المضمرة الممررة في الخطابات المهيمنة والمهمشة، بغية الكشف عن تمثلات وألاعيب الثقافة.

- يبقى الانتقال من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي ضرورة منهجية ومعرفية حسب ما جاء في كتابات الغذامي إذا توفر شرطان أساسيان:

- **أولهما:** إذا استنفذنا مناهج النقد الأدبي ولم يعد بمقدورنا مقاربة الخطاب الأدبي والثقافي، وهذا أمر مستبعد، لأن النقد الأدبي يبقى أساس العملية النقدية حتى في النقد الثقافي كما تقدم في مفهوم النقد الثقافي.
- **ثانيهما:** أن نشتغل بآليات النقد الثقافي دون أن نعلن موت النقد الأدبي كما فعل عبد الله الغذامي، لأن مهمة الناقد هي البحث في جمالية الخطاب وقبحيته، فلا يمكننا الاشتغال على العيوب النسقية دون البحث في جمالية الخطاب.

- تبقى بعض تطبيقات النقد الثقافي التي جاءت في مشروع الغذامي تحتاج للنظر والحفر في خلفياتها الاجتماعية، والأنثروبولوجية بخاصة، فبعض الصفات (الأنا، و الذات المتعالية، و الفحولة) التي يراها الغذامي أنها عيوب نسقية في المتنبي وأبو تمام وجرير وغيرهم قد لا تكون كذلك، لأن الواقع الثقافي والحضاري

المنارة للاستشارات

والأنثروبولوجي يتغير بتغير الزمان والمكان. كما أن بعض الصفات التي قد تكون عيوبا نسقية في الثقافة العربية لن تكون كذلك في الثقافة الغربية.

- يبقى مشروع النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي دراسة جادة ومهمة للمدونة العربية التي تفتقر لكذا دراسات وأبحاث، خاصة وأنها صادرة عن واحد من أهم النقاد والمفكرين العرب. كما أن مشروعه وكتاباته عن المرأة عدت من أهم الدراسات الجادة عن النقد النسوي باعتباره فرعا مهما من فروع النقد الثقافي.

الهوامش:

(1) ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية، 2005، ط3، ص: 07-08.

(2) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية، 2005، ط3، ص: 31-32.

(3) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المرجع نفسه، ص: 84.

(4) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المرجع نفسه، ص: 81.

(5) ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ط3، ص: 305-306.

(6) صلاح قنصوه، تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، القاهرة، 2007، ط1، ص: 5.

(7) عبد القادر الرباعي، تحولات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، 2007، ط1، ص:15.

(8) ماهر شفيق فريد، ما وراء النص – اتجاهات النقد الأدبي الغربي في يومنا هذا -، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2016، ط1، ص: 316.

(9) محمود خليف الحياني، ما بعديات النص واللا نص استراتيجية الكتابة ولعبة الثقافة، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ط1، ص: 107.

(10) حامد صادق قنيبي، نقد أدبي حديث – مفاهيم ومصطلحات وأعلام - ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ط2، ص: 61.

(11) عبد الله الغذامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2009، ط2، ص: 214.

(12) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير – من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق، المركز الثقافي العربي، ، المغرب، 2006، ط6، ص: 55.

(13) عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك -، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، (دط)، ص: 267.

[14] ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية، 2005، ط3، ص: 13-15.

[15] حسام الدين فياض، النظرية النقدية للمجتمع – مدرسة فرانكفورت أنموذجا -، صفحة نحو علم اجتماع تنويري،2010، ط1، ص: 7.

[16] ثقافة الوهم" – مقاربات حول المرأة والجسد واللغة -، عبد الله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي، 1998، ط1، ص103.

[17] مدخل في نظرية النقد النسوي وما بعد النسوية، حفناوي بعلي، منشورات الاختلاف – الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009، ط1، ص: 72-73.

[18] سليم حيولة، الاستراتيجيات القرائية المعاصرة في الواقع النقدي الغربي المعاصر، النقد الثقافي واستراتيجية كشف الأنساق المضمرة، مجلة المدونة، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة لونيسي علي – البليدة2- الجزائر، العدد الخامس، جانفي 2016، ص : 12.

[19] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص: 7-8 .

[20] عبد الله الغذامي و عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، دار الفكر، سورية، 2004، ط1، ص:12.

[21] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص:08.

[22] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص: 31-32.

[23] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص: 77.

[24] عبد الله الغذامي و عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، مرجع سابق، ص:30.

[25] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص: 119.

[26] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق ، ص: 119-120.

[27] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق ، ص: 250.251

[28] ينظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، المملكة المغربية، 2005، ص: 253-254.

*** *** ***

المنارة للاستشارات